الفتنة الكبرى في الأندلس (عصر الفتنة) (٣٩٩-٤٢٢هـ / ٩٧٦-١٠٣١م).

بعد مقتل عبد الرحمن شنجول، عاشت الأندلس في دوامة من الصراعات السياسية حول تسلم المناصب القيادية في البلاد ولم يكن الخليفة الأموي الجديد محمد المهدي بالمستوى المطلوب من الكفاءة والحنكة السياسية، فأرتكب العديد من الأخطاء الجسيمة التي تسببت في نشوب نار الفتنة، فلم يتخذ أعوانه من تسيير أمور الحكم من ذوي البيونات المشهورة والأكفاء الذين تمرسوا في السياسة وشؤون الحكم والإدارة، بل أتخذهم من العامة والغوغاء الذين لا خبرة لهم في مثل هذه الأمور الضرورية لاستقرار الدولة، وكان أول عمل قام به هو أن أرسل بعض أنصاره إلى سجن العامة فأطلقوا سراح من كان فيها من اللصوص والمجرمين، وأخذ هؤلاء اللصوص والغوغاء يعتدون على أهالي قرطبة بالسلب والنهب وخاصة مدينة الزاهرة وكان قد أعتصم فيها بعض أنصار الحاجب عبد الرحمن شخول الذي تبع هؤلاء حشود من العامة على مدينة الزاهرة (مقر الحكم) وتمكنوا من نهبها وتخريب قصروها ثم أمر الخليفة المهدي بتدميرها. ولعل ما ذكره ابن الرقيق القيرواني في كتابه تاريخ إفريقية والمغرب يُعد أبلغ وصف لما حدث إذ يقول: "وأعجب ما روي أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لربع بقين من جمادي الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء، فتحت قرطبة، وهُدمت الزاهرة، وخلع الخليفة هو المؤيد، وولي خليفة وهو المهدي، وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقتل وزيرهم محمد بن علاجة وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك علي أيدي عشرة فحامين وجزارين وزبالين وهم جُند المهدي."

ولم يكتف الخليفة المهدي بما فعله، بل ارتكب خطأ فادحاً آخر، إذ أخذ يستفز البربر ويظهر كراهيته لهم ويُحرض العامة في قرطبة عليهم، مع أنه بايعوه بالخلافة، ولذلك أظهر أهل قرطبة الكراهية للبربر ثم أنفجرت هذه الكراهية إلى عدوان، إذ هاجم عوام أهل قرطبة ونهبوا دورهم وأعتدوا على حريمهم ثم تم طردهم من قرطبة، وقام المهدي بالقبض على هشام وأخيه أبي بكر الأموي حيث قُتلا بين يديه، فكان ذلك خطأ آخر أرتكبه، إذ كان ذلك سبباً آخر للخلاف والفتن، إذ تسبب مقتلهما في تصدع البيت الأموي الحاكم وإنشقاق أفراده على أنفسهم. فكان أن فر الأمير الأموي سليمان بن الحكم من قرطبة ولحق بالبربر الذين تجمعوا بظاهرها فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله، ونهضوا به إلى طليطلة وطلبوا العون من شانجه أمير قشتالة في شمال إسبانيا، فأمده بقوات كبيرة زحف بها وبما تجمع لديه من قوات البربر إلى

قرطبة، فخرج الخليفة المهدي بأهلها، والتقى الفريقان في معركة أسفرت عن انتصار المستعين وقتل العديد من أهل قرطبة، حتى قيل أن عددهم بلغ عشرين ألفاً، ودخلها المستعين، حيث فر منها المهدي إلى طليطلة والذي لجأ هو الآخر إلى طلب المساعدة من الأمير القشتالي شانجه الذي غير سياسته وأمد المهدي بالعون وهكذا استمرت الحرب الأهلية بين مصادر القوى في الأندلس وخاصة في قرطبة التي أصبحت مسرحاً للفوضى والفساد، وخشي الناس فيها على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وانتشر اللصوص والمجرمون وقطاع الطرق في النواحي في غياب السلطة الرادعة يزيدون الأمور تعقيداً.

أما المستعين، فلم يتمتع بثمرة نصره طويلاً، إذ أن الفتنة فتحت باب الإنقلابات السياسية الذي بدأت تتوالى بشكل متواصل مما زاد في سوء الوضع وزاده تعقيداً، فلم تلبث أن نشبت ثورة كبيرة عليه تزعمها علي بن حمود أحد أمراء الأدارسة حيث تمكن من قتل الخليفة المستعين والاستيلاء على الحكم، ولكن لم يلبث أن قتل هو الآخر بعد فترة وجيزة فخلفه أخوه القاسم بن حمود الذي حاول أن يعيد الهدوء إلى قرطبة تمهيداً للقضاء على الفتن ولكن البربر الذين لم يكن يعجبهم ذلك، فتخلوا عنه وبذلك فقد قوته مما جعل أهل قرطبة يقومون بإقصائه وتنصيب أمير أموي آخر في منصب الخلافة، ولهذا فأن الفتنة الكبرى في الأندلس خلـــــال الفترة (٣٩٩-٤٢٢هـ)

أزالت حرمة الخلافة من النفوس، فأصبح من السهل خلع الخليفة أو قتله وإستبداله بآخر وفق الأهواء والمصالح وقد تمكن يحيى بن علي بن حمود الأدريسي من الوصول إلى الحكم، إلا أنه تم اغتياله بعد فترة وجيزة ونصب مكانه الخليفة هشام الثاني، وأخيراً نقول بأن نتيجة هذه الانقلابات والفتن كانت وبالاً على الأسرة الأموية بخاصة وعلى الأندلس بوجه عام، إذ أن ذلك أدى إلى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله وإجلاء من تبقى من أبناء البيت الأموي عن قرطبة كما قال ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام "مشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد في قرطبة من بني أمية ولا يكفلهم" حيث قامت بقرطبة حكومة جماعية عُرفت بحكومة الجماعة كانت أشبه بالجمهورية برئاسة أبي الحزم بن جهور، أما باقي بلاد الأندلس فتمزقت إلى كيانات عدة وهي التي عُرفت في التاريخ بأسم عصر إمارات الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ/ ١٠٣١-١٠٩١م).